النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الثامن

في التاريخ النصرانيّ بين عرب الجاهليّة

ان ما قيل في آثار الخطابة بين نصارى العرب في عهد الجاهلية يصح في آثارهم التاريخيّة فانها قليلة جدا كأن العرب ظلّوا في جزيرتهم معتزلين عن بقيّة الشعوب المسيحيّة لم يعرفوا منها شيئاً . وليس الامر كذلك كما سترى وانما سبب ندرة هذه الآثار انّ اهل الجاهليّة لم يدوّنوا معارفهم في بطون الدفاتر لقلّة انتشار علم الخطّ بينهم فصحّ فيهم قول المثل « كلُّ علم ليس في القرطاس ضاع »

ويُضاف الى هذا السبب سببٌ آخر وهو قلّة اكتراث الرواة المسلمين لتدوينها حين باشروا بجمع آثار الجاهليّة في القرن الثاني للهجرة . فكان حينئذٍ معظمُ همّتهم ان يرووا ما يسمعونه من عرب الحضر والمدر من الشعر الجاهليّ والمفردات اللغويّة والامثال والحكم وما اشبه ذلك . امّا ما عرفهُ اجدادهم من تاريخ النصرانيّة فلم يعيروهُ بالًا

على اننّا لو نقّبنا في الامر ودقّقنا النظر في تلك المرويّات السالمة من طوفان الحروب الاسلاميّة لوجدنا انّ عرب الجاهليّة عرفوا اشياء كثيرة من تاريخ النصرانيّة واثبتوا بذلك شيوعها في ظهرانيهم

١ واوّل دليل الى قولنا معرفتهم بالاسفار المقدّسة من العهد القديم ليست الاوّليّة فقط الشائعة عند اليهود بل الثانويّة ايضاً التي وردت في النسخة السبعينيّة

وكان النصارى يعتبرونها كمنزلة بالوحي الالهي مثل الاولية . فمن راجع ما نقلناهُ سابقاً في الفصلين الثاني والرابع من هذا الجزء وما ورد فيهما من اخبار العهد العتيق في شعر امية بن ابي الصلت وعدي بن زيد وزيد بن عمرو بن نوفل وغيرهم تحقق ان عرب الجاهلية اطّلعوا بفضل النصرانية على كلّ اخبار التاريخ المقدس قبل المسيح

٢ وفي ذينك الفصلين بابٌ آخر يثبت معرفة اهل الجاهلية بتاريخ العهد الجديد ايضاً اعني اخبار السيد المسيح واعماله وانجيله ومجيئهُ في آخر الازمان ليدين العالم . وورد مثل ذلك في القرآن والحديث كما رويناهُ سابقاً . وكلهُ يشهد على معرفة العرب بزبدة تاريخي العهد القديم والعهد الجديد معاً

٣ ومما يُستفاد من فصولنا السابقة ولاسيما ما اوردناهُ من الشعر الجاهلي ان العرب قبل الاسلام عرفوا ايضاً حقّ المعرفة : ١ً رُسلَ المسيح وحواريّيه وامهُ مريم البتول الطاهرة ويوحنّا المعمدان السابق امام وجههِ وبعض المبشرين بهِ في بلادهم من تلاميذهِ . ٢ً كنيسة المسيح ونظامها من بطاركة واساقفة وكهنة وشمامسة . ٣ً رُهبانَ النصارى واديرتهم وصوامعهم وقلاليّهم ومناسكهم في اعلى الجبال وسُرُجهم المتّقدة ليلاً وعيشتهم الشظفة . ٤ً بِيَع النصارى ومعابدهم وما تمتاز بهِ من هياكل ومحاريب ومنابر ومنارات ومصابيح وصلبان وصُوَر ودُمى ونواقيس . ٥ً أسرار النصارى وخصوصاً المعموديّة والقربان الاقدس والذبيحة الالهيّة المقدّسة تحت شكلَي الخبز والخمر . ٦ً اعياد النصارى كالدنح (الغطاس) والسباسب (الشعانين) وخميس العهد والفصح والسلّاق (الصعود) . ٧ً عادات النصارى في صومهم وصلواتهم وطوافهم حول الكنائس وحجّهم الى القدس الشريف وملابسهم الخاصّة . ٨ً امتياز احبارهم وعلمائهم بعلم الكتابة وبنقل المصاحف الدينيّة من توراة وزبور وانجيل مع تنميقها ووشيها بالرسوم وضروب النقوش الملوّنة . فكلّ هذه المعلومات تقوم مقام سفر جليل ينبئنا بشيوع التاريخ المسيحي بين عرب الجاهلية

٤ وقد اورثنا نصارى العرب فوائد تاريخيّة جمّة منها ما نُقل عنهم بالتقليد في اقدم التواريخ الاسلاميّة كالطبري يؤخذ منها خبر دخول النصرانيّة بين عرب العراق والشام وانتشار الدين المسيحي في جهات اليمن قبل وبعد استيلاء الحبش عليها . ومنها كتابات حجريّة رُقمت على الصخور بالقلم المسند الحميري فاكتشفها

السيَّاح في ايَّامنا واشرنا اليها في مقالاتنا السابقة وممَّا ورد في مضامينها ذكر سدّ مأرب والسيل العرم . ومنها عاديَّات خلَّفتها الامم السالفة كبعض القصور التي ينسبها العرب الى قدماء النصارى وبعض البِيَع مثل كنيسة صنعاء المعروفة قديماً بالقُلَّيس التي صبرت بعض آثارها على آفات الدهر او كمثل كعبة نجران وغير ذلك ممَّا يُتَّخذ حجَّة لنسبة المعارف التاريخيَّة وغيرها اليهم

٥ وممَّا وقف عليه العرب من اخبار الكنيسة ذكر بعض شهدائها كالقديس جرجس الشهيد الذي شاع بين العرب اسمهُ ومنهم مَن دعاهُ بالخضر . ويشهد على انتشار اكرامهِ في جهاتهم ان اقدم الكنائس النصرانيَّة التي بُنيت على اسمهِ انما شُيِّدت سنة ٣٦٧ في مدينة ثُغَة من اعمال حوران (راجع المشرق ٦ [١٩٠٣] : ٣٨٧) وقد تكرَّر اسمهُ في الكتابات اليونانيَّة المكتشفة هناك . ومثلهُ القديسان الشهيدان سرجيوس وباخوس المكرَّمان بين العرب في الرصافة والرقَّة وجهات الفرات . وكان بنو تغلب اتَّخذوا صورة الاوَّل كراية تتقدَّمهم في الحرب (راجع ديوان الاخطل ص ٣٠٩) قال :

لمَّا رأونا والصليبَ طالعًا ومارِ سرجيسَ وسنَّا ناقعًا
وابصروا رايابنا لوامعا خلَّوْا لنا راذانَ والمزارعا

وقد ذكرنا سابقاً انَّ اوَّل اثر من الخطِّ العربيّ قد كُتب سنة ٥١٢ للمسيح اي ١١٠ سنوات قبل الهجرة على مشهد القديس سرجيوس في زَبَد وصوَّرنا هناك صورتهُ (الجزء الاوَّل ص ٢٠٣—٢٠٤) . والاثر الثاني من الخطِّ العربي يرقى الى السنة ٥٦٨ م وُجد في حران من اعمال حوران كُتب على مشهد أقيم تذكارًا للقديس يوحنَّا المعتدان المكرَّم هناك

وكذلك اصحاب الكهف وهم شهداء أفسس الذين روي عنهم انَّهم هربوا من وجه المغتصب في عهد دقيوس قيصر فالتجأوا الى كهف اي مغارة وظلوا فيها نائمين السنين الطوال حتَّى افاقوا من سباتهم باذن الله وصاروا آيةً للقيامة . وقد ورد ذكرهم في القرآن وفي شعر اميَّة بن ابي الصلت كما ورد ذكر اصحاب الاخدود اي شهداء نجران الذين القاهم ملك اليمن اليهودي ذو نوَّاس في اتون النار (راجع سورة البروج في القرآن) — وذكروا تاريخ حبيب النجَّار زعموا انهُ رافق تلاميذ المسيح الى انطاكية وساعدهم في نشر دينهِ بين اهلها

٦ امّا التاريخ المدنيّ فقد عرف منهُ نصارى العرب نُتَفاً لاسيّما تاريخ الامم المجاورة للعرب من فرس وحبش ورومان . فمن ذلك ما انشدهُ اميّة بن ابي الصّلت في محاربة سيف بن ذي يزن للحبش بمساعدة الفرس وطردهم من جزيرة العرب (راجع في شعراء النصرانيّة لاميّتهُ ص ٢٣١) التي اوّلها :

ليطلب الوترَ امثالُ ابن ذي يَزَنٍ في البحر خيّم للاعداء احوالا

وربّما ذكروا ملوك الروم باسمهم العام « قيصر » كقول امرئ القيس عند رحلته الى حاضرة ملوك الروم يستنجدهم على قَتَلة ابيهِ :

بكى صاحبي لمّا رأى الدرب دونهُ وايقَنَ انّا لاحقانِ بقيصرا
فقلتُ لهُ لا تبكِ عينُك انّما نحاول ملكاً او نموتَ فنُعذرا

وخصّوا بالذكر بعضهم كنورق اي موريقيوس قيصر . قال الكندي يذكر بعض من فتك بهم الدهر (حماسة البحتري ع ٣٨٣)

واضيعَ أبرهَة الذي سجدَتْ لهُ سُمُّ الفيول صواتّاً لم تنطقِ
وأجبّ كسرى وابن كسرى بعدهُ والمرء قيصرَ وانتحَيْنَ لمُورِقِ

وكذلك ذكروا منهم هِرَقل او هِرْقل . قال لَبيد (ديوانهُ ص ٣٥) :

غلب اللياليِ مُلْكَ آلِ محرّقٍ وكما فَعَلْنَ بشُبَّمٍ وبِبِرْقلِ

امّا ملوك العجم فقد ذكروا معظم اسماء ملوك سلالتهم الساسانيّة مثل كسرى وازدشير وهرمز

٧ ومن المرويّات العديدة التي نقلها اوّل كتبة الاسلام على علّاتها فاثبتوها باسانيدها الى بعض اهل الكتاب من نصارى ويهود ممّا لا يخلو منهُ تأليف واحد من تآليفهم القديمة وربّما اشار اليها القرآن او نقل عنها الحديث يظهر انّهُ شاعت في جزيرة العرب مصنّفات شتّى معظمُها لبعض المبتدعين او لكتبة مجهولين لا صفة لهم رسميّة في الكنيسة . وقد بقي منها اشياء في قصص الانبياء للثعلبيّ وغيرهِ . وفيها الغثّ والسمين . ومن هذه التآليف ما ورد ذكرهُ في الشعر القديم ولا نعلم من امرهِ شيئاً كقول بشر بن ابي خازم وقيل الطرمّاح في كتاب بني تميم (المفضّليات ص ٦٧٦) :

وجدنا في كتاب بني تميمٍ احقُّ الخيلِ بالرَّكض المُعارُ

وكانت بعض هذه التآليف مكتوبة بالسريانيّة او الحبشيّة فوقف على مضامينها

العرب ونقلوا اشياء منها خصوصاً من كتاب « مغارة الكنوز » المنسوب زوراً الى القديس افرام . وكان في هذه الكتب الصحيح والسخيف فلم يفرز العرب العليل من السالم

هذا ما استطعنا استخلاصهُ من الآثار الباقية فهو مع قلّته شاهد صادق على ما توخّينا اثباتهُ عن شيوع التاريخ المسيحيّ عند قدماء العرب (الى تابع)

تنصُّر الامراء الشهابيين واللمعيين في لبنان

للكاتبين البارعين عيسى اسكندر المعلوف والشيخ سليم الدحداح

اقترح بعض القرّاء على مجلّة المشرق هذا الموضوع الذي مع عظم شأنهِ لم يتعرّض لهُ حتى الآن احد من كتبتنا الادباء فرأينا ان ننتدب لهذا الامر كاتبين مدققين اعلم من سواهما بتاريخ لبنان نعني بهما عيسى اسكندر المعلوف صاحب مجلّة الآثار والشيخ سليم الدحداح صاحب المقالات التاريخيّة المستحسنة فاجابا الى ملتمسنا بما عُرفا بهِ من اللطف . فاستخلصنا مما كتباهُ ما رأيناهُ اقرب الى الصحّة واضفنا اليهِ ما وقفنا عليهِ من ذلك في مآثر الفرنج ل . ش

نظر اجماليّ في اصل الامراء الشهابيين واللمعيين

ليس من غرضنا ان ندوّن هنا تاريخ هؤلاء الامراء ونبحث عن اصلهم وفصلهم وكلّ يعرف ما احرزوا لهم من الشهرة وخلّفوا من الآثار في لبنان وانحاء الشام منذ قديم الزمان . فمن اراد تفاصيل اخبارهم عليه بالتواريخ المنشورة سابقاً كالغرر الحسان للامير حيدر الشهابي واخبار الاعيان في جبل لبنان للشيخ طنوس شدياق وليراجع ايضاً في المشرق (٤ [١٩٠١] : ٧٦٩ و ٨٣٠) ما كتبهُ الشيخ ابو خطّار العنطوريني عن اصل الامراء والمشايخ في لبنان

انّا نقول بالاختصار انّ الامراء الشهابيين ينتسبون الى مالك بن الحرث بن هشام المخزوميّ الذي توطّن حوران في عهد عُمَر بن الخطّاب ونال فيها الامارة . وقد لُقّب مالك المذكور بشهاب باسم جدّهِ شهاب بن عبدالله . ثمّ انتقلت سلالتهُ بعد قرون الى وادي التيم فتملّكوهُ ولم يزل يتّسع نفوذهم حتّى اتّصلوا